للمثلّث الأحمر حكاية

حسن مدن

منذ اجتاحت قوّات الاحتلال الإسرائيلي قطاع غزّة، وتوغّلت في أراضيه، اعتدنا مشاهدة الفيديوهات التي يُرْزعها الإعلام العسكري لكتائب القسّام، ولغيرها من الفصائل المُقاومة، وتُظهر العمليات التي يُنفّذها مقاتلوها ضدّ جنود الاحتلال وضبّاطه ودبّاباته ومُعدّاته في مناطق مختلفة من القطاع، وألفنا منظر المثلّث الأحمر المقلوب، الذي يظهر في هذه الفيديوهات مُحدِّدًا ما يستهدفه هؤلاء المقاتلون من الشجعان من مواقع وآليات وقوّات، قبل أن تنطلق قذائفهم نحوها، مُوقعة فيها الخسائر، وما أكثر ما رأينا من مشاهدَ لجنودٍ إسرائيليين يسقطون قتلى، أو جرحى، أو يفرّون من الموقع المُستهدَف.

منذ قامت دولة الاحتلال، بل حتّى قبل أن تقوم، قاتل الفلسطينيون وقدّموا التضحيات في سبيل تحرير وطنهم المُحتَلّ. ولكن، لم يكن في الأزمنة الماضية متيسِّراً تصويرٌ ما يقوم به هؤلاء المقاتلون من عمليات، حتّى جاء زمنٌ أصبح فيه ممكناً، لا التقاط الصور وحدها، وإنّما تصوير الفيديوهات لما ينفّذه مقاتلو اليوم من عمليات ضدّ العدو المُحتَلّ.

يخضع الإعلام، في العالم عامّةً، لعددٍ محدودٍ من الوكالات والمحطّات المتحكّمة في اختيار الصور والفيديوهات التي تبثّ النزاعات وتجيّرها لصالح السردية التي يتبنّاها أباطرة الإعلام عن الصراعات والحروب الجارية في مناطق مختلفة من العالم، لعلّ فلسطين أبرزها اليوم. ورغم ذلك، أصبح لمقاومي المُحتَلّ إعلامُهم، الذي يقاتل بالكلمة والصورة والفيديو بطريقةٍ مكّنتنا، ليس من قراءة البيانات العسكرية أو سماعها فقط، وإنّما أيضاً من مشاهدة الفيديوهات التي تُوثّق ما يقومون به من استهدافات للعدوّ وقواته، حتّى غدا المثلّث الأحمرُ في هذه الفيديوهات رمزاً للكفاح الفلسطيني المسلّح ضدّ الاحتلال. في إطار الحملة الغربية المسعورة ضدّ كلّ ما هو فلسطيني، والتي طاولت، فيما طاولت، رموزَ الفلسطينيين كالكوفية السوداء التي غدت علامةً لفلسطين ولقضية شعبها، أصبح المثلّث الأحمرُ المقلوب، هو الآخر، هدفاً لهذه الحملة، خاصةً أنّه قد ظهر في إطار موجة احتجاجات متضامنة مع فلسطينيين شهدتها العديد من الجامعات في أنحاء العالم، فضلاً عن استخدامه في منصّات التواصل الاجتماعي، وفي مظاهرات مناهضة للحرب.

من دلائل استهداف هذا المثلّث إقرارُ برلمان ولاية برلين في ألمانيا، في مطلع يوليو/ تموّز الماضي، اقتراحاً طارئاً يرمي إلى تمديد الحظر الذي فرضته الحكومة الألمانية على حركة «حماس»، ليشمل أيّ استخدام صريح لشعار «المثلّث الأحمر»، وإدراج استخدامه في خانة «رموز المنظّمات المناهضة للدستور» أو «المنظّمات الإرهابية». من المفارقات ذات الدلالة والمعنى، ما دمنا نتحدّث عن ألمانيا بالذات، أنّ «حماس» ليست هي أول من استخدم هذا المثلّث في الفيديوهات التي توزّعها عن عملياتها في غزّة. فقد كان يُستخدم سابقاً من ضحايا النازيّة للإشارة إلى أنّهم كانوا سجناء، سياسيين داخل معسكرات الاعتقال. وفق تقرير نُشر في موقع «دي دبليو»، فإنّه، ومنذ منتصف ثلاثينيّات القرن الماضي، جرى إجبار السجناء السياسيين القابعين داخل معسكرات الاعتقال النازيّة على ارتداء شارات من القماش رُسم عليها المثلّث الأحمر، في إطار منظومة وصم عامّة. وعقب انتهاء الحرب العالمية الثانية في عام 1945، استخدم الناجون من معسكرات الاعتقال النازيّة، وأقاربهم، والمتعاطفين معهم، رمزَ «المثلّث الأحمر» شارةً شرفيةً لنضالهم. هذه الخلفية التاريخية هي ما حمل القوى المعادية للنازيّة في ألمانيا، ومن ضمنها «جمعية مضطهدي النظام النازي - اتحاد مناهضي الفاشية»، على اتهام الأحزاب السياسية التي جرّمت استخدام المثلّث الأحمر رمزاً، بـ«فقدان الذاكرة التاريخية». وعلى انتقاد أعضاء برلمان ولاية برلين بالتسرّع في الانخراط في سياسات في سياق مناهضة معاداة الساميّة والعداء لإسرائيل، ويمكننا إضافة أنّ هذا الهوس بنصرة إسرائيل وشيطنة الفلسطينيين، دفع المبتلين به إلى التنكّر لرمزٍ مُعبّر في تاريخ بلادهم وأمتهم.

كيف تفكّر طهران؟

محمد ابو رمان

ثمّة غموض استراتيجي يكتنف الردّ الإيراني المتوقّع (إلى حين كتابة هذه السطور)، قد ينظر بعضٌ إلى هذا الغموض من زاوية عسكرية، فأيّ ضربة لإسرائيل (ردّاً على اغتيال الرئيس السابق لحركة حماس، إسماعيل هنيّة، بوصفه ضيفاً على طهران في مناسبة رمزية) من الضروري أن تأخذ بالاعتبار أن تكون مؤلمةً وقاسية، لكنّها في الوقت نفسه محدودةٌ، كي لا تُؤدّي إلى توفير الذرائع بتوسيع نطاق الحرب، وهو الأمر الذي عملت القيادة الإيرانية على تجنّبه منذ البداية، وهي القواعد التي تواطأت عليها مع الإدارة الأميركية منذ بداية عملية طوفان الأقصى.

وملاحظ منذ عملية اغتيال هنيّة التي تزامنت مع اغتيال فؤاد شكر (القائد البارز في حزب الله حليف إيران الاستراتيجي في المنطقة) أنّ الضغوط الدبلوماسية الغربية والأوروبية تحديداً تكثّفت بدرجة كبيرة للغاية على إيران، بخاصّة على الرئيس الجديد، مسعود بزشكيان، المحسوب على التيار المعتدل في السياسات الإيرانية، لتجنّب ردٍّ إيراني يؤدي إلى إشعال المنطقة، ومن المتوقّع أنّ هذه الضغوط آتت أكلَها في تعقيد حسابات طهران وتعزيز وجهة نظر الطرف الذي يدعو إلى «عقلنة» ردّة الفعل بما لا يُؤثّر في مصالح طهران، ولا يُدخِل البلاد في مواجهة واسعة، ليس مع إسرائيل فقط، بل مع الولايات المتّحدة، وحلفائها في العالم.

ليس من المُتصوَّر، في أيّ حال، أن تتراجع إيران عن تنفيذ عملٍ ما في مواجهة إسرائيل، ما دام أنّ خطاب المُرشد الأعلى، والحرس الثوري، وحليفه حسن نصر الله، قد رفع مستوى العمل الإسرائيلي إلى مرتبة المسّ بشرف إيران، من ناحية، ولأنّ عدم الردّ أو الردّ الضعيف سيؤدّيان إلى تآكل سمعة الدولة ومفهوم الردع الإقليمي، الذي عملت طهران لترسيخه بصورة متدرّجة خلال عقدَين (منذ سقوط جدار بغداد وتوسّع النفوذ الإيراني في المنطقة). لكن، في المقابل، هنالك مخاطر متعدّدة تهدّد هذا النفوذ الذي يُواجِهُ، بسبب طبيعته الطائفية في المنطقة، تحدّيات كبيرةً، في «الساحات» التي قوي فيها خلال الفترة الماضية.

إذا اختارت طهران، على سبيل المثال، أن يكون الردّ من خلال «الوكلاء»، فقط، فذلك سيُعرّضهم لأزمات كبيرة، ليس في الصراع مع إسرائيل فقط، بل في المجتمعات التي ينشطون فيها أيضاً، فهنالك تململ كبير في لبنان من جانب القوى المناوئة لحزب الله، وربّما ستنقض على الحزب إذا ما تركّز الردُّ من جهته، ودفع لبنان ثمن ردّ الفعل الإسرائيلي، وستكون هنالك دوّامة أزمة داخلية كبيرة في لبنان، فيما كان الحزب قد تمكّن من تعزيز نفوذه السياسي والعسكري بصورةٍ خلال الفترة الماضية، بينما نجد أنّ الحزب اليوم عمل جاهداً على إبعاد نفسه عن أيّ مواجهة إقليمية، ومن الواضح أنّه لا يرغب في أيّ عمل في أراضيه، لأنّ الثمن قد يكون انهيار النظام نفسه، فيما تبدو الحالة العراقية في وضع مُحرج ومعقّد هي الأخرى، بين نفوذ إيراني قوي، وقواعد ونفوذ سياسي وضغوط أميركية، وحالة شعبية منقسمة هي الأخرى.

فوق هذا وذاك، سيُضعف سيناريو الردّ من خلال الوكلاء، فقط مكانة إيران، لأنّ الضربة كانت في قلب طهران وفي مناسبة رمزية مُهمّة، وسيبدو المشهد وكأنّ إيران تضحّي بحلفائها كي لا تستدرج هي لحرب مع إسرائيل (!) وعلى الأغلب أنّنا أمام وجهتَي نظر في طهران: الأولى يحملها الحرس الثوري والعسكريون وفيلق القدس، وتريد الردّ حتّى لو أدّى ذلك إلى صدام مع الولايات المتّحدة، إذ قد يساعد ذلك إلى استهداف القواعد الأميركية في العراق وسورية، ومن ثم، محاولة إضعاف أميركا في هذه المناطق المُهمّة. والثانية للرئيس الجديد، ومعه تيّار سياسي براغماتي يريد التدقيق أكبر، والموازنة بين مصالح إيران وكرامتها، من خلال اجتراح معادلةٍ تضمن بقاء الباب مفتوحاً أمام تحسين علاقات إيران بالغرب.

نحنُ وهُمْ... صورة الواقع المُتخيَّلة

حسان الأسود

يَحارُ المرءُ كثيراً خلال محاولاته لفهم سبب النظرة المسبقة، والتصنيف القَبْلي للمسلمين والعرب في أوروبا والغرب عموماً، لدرجة الانطباعُ بأنّ هذا يكادُ يكون راسخاً في عقلية الغربيين عن الشرق، وقد لعبت السينما والصحافة دوراً كبيراً في ترسيخ هذه الصورة عبر آخر عقود، لكنّ الأصل في هذا ليس سببه الرئيس الإعلام، بل العلاقة المُعقّدة بين الشرق والغرب، التي نشأت منذ مئات السنين.

يقول إدوارد سعيد: «ولكنّ الاهتمام الأوروبي بالإسلام لم ينشأ، كما سبق لي أن ذكرت، من حُبّ الاستطلاع بل من الخوف من منافس للمسيحية يتميّزُ بوحدته وصلابته وبقوته الجبارة ثقافياً وعسكرياً. وكان أوائل الباحثين الأوروبيين في الإسلام، على نحو ما بيّنه مؤرخون كثيرون، من أرباب المجادلات القروسطية الذين كتبوا ما كتبوه لدرء خطر جحافل المسلمين التي تهددهم وخطر الارتداد عن الدين المسيحي. وقد استمرت هذه التوليفة من الخوف والعداء، بصورة ما، حتى يومنا هذا، سواء في الاهتمام العلمي أو غير العلمي بالإسلام، وهو الذي يُنظرُ إليه على أنه دين ينتمي إلى منطقة معينة من مناطق العالم -هي الشرق- وهي التي غدت تمثل الثقل الموازن - خيالياً وجغرافيا وتاريخياً - لأوروبا أو ضد أوروبا والغرب» («الاستشراق: المفاهيم الغربية للشرق»، ص 520). كانت ردّة فعل الكنيسة تجاه الإسلام، باعتبارها صاحبة الثقل الكبير في الغرب الأوروبي، خاصّة بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية في يد القبائل الجرمانية، وقيام الكنيسة بدور الدولة في حفظ المجتمعات المسيحية، أحد العوامل الحاسمة في تحديد النظرة للشرق عموماً. لقد سادت النظرة المشكّكة بالدين الجديد عند الكنيسة، فكان الموقف السائد يعتبر أنّ محمّداً (ص) ليس إلا نسخةً مزيفةً عن يسوع المسيح، وأنّ الإسلام ليس ديناً أصيلاً، بل محاكاة هزلية للدين الحقّ، أي المسيحية. هكذا بقي الإسلام خارج الحدود الجغرافية، أي ليس فقط خارج الحدود الجغرافية، بل والفكرية أيضاً. استتبع هذا اعتبار الإسلام، ليس خطراً عسكرياً فقط، بل خطيئةً يجب محاربتها والانتقاض منها في كلّ محاكمة فكرية، فكانت تسمية الديانة «المحمّدية» أحد أوجه إنكار المصدر السماوي الإلهي للدين الإسلامي. يمكننا أن نرى ذلك العداء في أغلب الكتابات الأدبية والفكرية الأوروبية خلال العصور الأوروبية المظلمة. مثالاً على ذلك، يمكن سوق عمل دانتي (1321) الشهير؛ «الكوميديا الإلهية»، التي تمثّل بشكل أدبي شعري النظرة المسيحية في القرون الوسطى للحياة الآخرة. في هذا العمل المحكم الشعري يسمّي دانتي الرسول محمد (ص) «ماوميتو»، ويضعه في الدائرة الثامنة من حلقات الجحيم التسع، أي الحلقة التاسعة من حلقات الشرّ العشر (!) هذا لا يدلّ إلا على قناعة راسخة بأنّ الكنيسة ما كانت لتعترف أبداً بالدين الإسلامي ديناً إلهياً، وبمحمد (ص) نبيّاً مرسلاً من الله جلّ جلاله، وهو ما أحدث الأثر الأكبر على الفكر الغربي تجاه الشرق عموماً، وتجاه المسلمين والعرب خصوصاً، فما زالت ظلال هذا التقييم القروسطي قابعةً في المخيّلة الغربية عن الشرق.

رغم انفتاح العالم على بعضه خلال آخر عقدَين بشكل هائل، ورغم التقدّم الكبير في التبادل المعرفي عبر الصوت والصورة والكتابة، أي عبر الفنون والآداب والعلوم، ورغم تقارب البشر فيزيائياً واختلاطهم وتعارفهم المباشر من خلال الهجرات والرحلات وتشارك العمل والحياة، إثر التقدّم الواضح في وسائل التنقّل والتواصل، رغم ذلك كلّه، تبقى التصوّرات والانطباعات الراسخة من جبل إلى جبل أكثر حضوراً وثباتاً في أفكار البشر. هكذا يبدو الماضي أكثر حضوراً في الزمن الراهن من الحاضر ذاته، وتبدو الصورة أشدّ رسوخاً من الأصل ذاته، وكأنّ كتابات سرجون بن منصور (يوحنّا الدمشقي)، التي حملت أوائل النعوت للإسلام بالهرطقة باعتباره ديناً مزيّفاً، لا تزال حاضرة في أيامنا هذه من خلال جهد معرفي كبير، بدا يتكثّف مع نهايات القرن الـ 18، وخصوصاً حملة نابليون بونابرت على مصر، وهو ما سُمّي لاحقاً الاستشراق، وهذا بالذات ما يشرحه المفكّر العربي إدوارد سعيد في كتابه المذكور، الذي يحمل اسماً ذا دلالة كبيرة على مضمونه.

> ارتفعت الجدران بين الشرق والغرب بفعل المستشرقين والاستشراق، الذي كان جزءاً من الآلة الاستعمارية التي غزت العالم بعد النهضة الأوروبية

عالج إدوارد سعيد الاستشراق بشكل مُعمّق، غاص فيه وأعطى الأشياء معنىً آخر مختلفاً تماماً عن المفهوم السائد عن العلاقة بين الشرق والغرب. لا يقتصر الأمر على فهم رؤية سعيد، الذي أتى من هذا الشرق، حيث ولد وعاش ردحاً من العمر قبل التنقّل في المنافي، ثمّ ليفهم ذاك الغرب حيث درس وتعلّم وكتب وأبدع، بل إنّ قراءته توصل إلى جوهر مختلف كلياً عما ألفه المرء قبل ذلك. ثمّة أفقٌ آخرُ ينقلنا إليه كتابه (الاستشراق)، بعيدنا إلى ضرورة ممارسة محاكمات عقليةٍ بدَتْ ردحاً طويلاً لمن لم يقراه وكأنّها مسلّمات أو بديهيات رسّخها نهج المستشرقين الغربيين في العقل البشري. أبدأ لا ينظر الغربيون لنا بعُدُنا، نحن الشرقيين، كائناتٍ موضوعيةً موجودةً خارج تفكيرهم. نحن الصورة المرسومة ذهنياً في عقولهم، والمنبثقة من تراكم توصيفات المستشرقين الأوروبيين والغربيين عموماً عبر عقود عديدة، منذ بدء الاستكشافات الجغرافية الكبرى، وانتشار الاستعمار الأوروبي في بلادنا، حتّى اللحظة الراهنة، بل ربّما منذ كتابات يوحنّا الدمشقي (749) وصولاً إلى كتابات برنارد لويس. يستمدّ الموظف الإداري البسيط في ألمانيا مفاهيمه عن الشرق والشرقيين من المعين ذاته، الذي ينهل منه رئيس فرنسا إيمانويل ماكرون، برسم الأول صوراً تُرشد اللاجئين والمهاجرين إلى كيفيّة استخدام دورات المياه، ويعظّنا الثاني لإيجاد حلول لخروج ديننا الإسلامي من «أزمته»، حسب تعبيره.

ارتفعت الجدران بين الشرق والغرب بفعل المستشرقين، وبفعل الاستشراق، الذي كان جزءاً من آلة الاستعمارية الجبّارة التي غزت العالم بعد النهضة الأوروبية. كان لانتشار موجة الأفكار القومية منذ القرن الـ 19 دورٌ في تعزيز الفصل بين الأمم والشعوب، وأثر ازدهار علوم الميكانيكا والبيولوجيا والأنثروبولوجيا في الأوروبية، فكان إحساس الأوروبيين بالتفوّق العرقي مرتبطاً بشكل وثيق بتقدّمهم في ساحات العلوم والاختراعات والاكتشافات الكبرى، وهذا بدوره وسّع الهوّة مع الشرق، الذي كان في قاع هوّة الانحطاط الحضاري. ورغم مضي تلك الحقب المظلمة من تاريخ البشر، إلا أنّ رواسبها لا تزال واضحةً في السلوك الدولي السياسي العام. هنا يحضرنا أن نضرب مثالاً على ذلك ابتداع مشكلة التطرّف والإرهاب، ووصم الإسلام والمسلمين بهما، فالغرب بحاجة إلى عدوّ يعرّف نفسه من خلاله وبالتضادّ معه، وبسقوط الاتحاد السوفييتي بدأ الترويج للعدو الإسلامي، فكانت جذور الفكرة موجودة بالفعل من خلال تراث الاستشراق الكبير الذي طالما وضع المسلمين ضمن قالب مُحدّد، هو قالب العدوّ المُضمر، «الآخر» المختلف والمتخلّف، الذي لا قيمة له إلا باستعماره واستعباده، لكنّ المركزية الأوروبية بدأت تتكسّر شيئاً فشيئاً تحت مطارق جيل جديد من مفكري الأطراف أو العوالم الثانية، وهو الذي بدأ كما يقول إدوارد سعيد في ثمانينيّات القرن العشرين مع الإيرلنديين والهنود والأرجنتينيين في دراسات «ما بعد الاستعمار» «وما بعد الحداثة»، وقد يأتي اليوم الذي تنتهي فيه النظرة لاعتبار الاستشراق «نظاماً خالداً»، ويصبح كما هو فعلاً «ظاهرةً ثقافية سياسية»، ويعود الواقع ليحلّ مكان صورته المُتخيّلة.

(كاتب سوري في برلين)

عمر بنجلون: جدلية القمع والنضال

عبد القادر الشاوي

توالى على المغرب، منذ تاريخ اغتيال عمر بنجلون في 18 ديسمبر/ كانون الأول 1975، جيلٌ كامل من العاملين، وغير العاملين، في مختلف مجالات الحياة، لم تعد لهم فيما يبدو، في مدى أربعين سنة فقط، أيّ رابطة ما (نفسية، عاطفية، أخلاقية، سياسية...) تؤلّف بينهم، ولو في مستوى التذكر، وبين مرحلة مُلتهبة تميّزت بالاستبداد والتخلّف والتبعية الاقتصادية، وسواها من الأوضاع والتوجّهات التي طبعت الحياة السياسية، وكانت عناوناً للممارسات السلطوية المختلفة منذ استقلال 1956 تقريباً. ولم تتبدّل الأوضاع تدريجياً، في الأقلّ من جهة التاريخ، إلا باعتماد الانتخابات الجماعية في 1976، والتشريعية في 1977، قاعدةً شعبيةً وتشريعيةً لما سيُعرف فيما بعد بـ«المسلسل الديمقراطي»، الذي لم تكن له في الحقيقة أيّ مشروعية، لأنّه صدر أصلاً من تصوّر أبوي تربوي ذي نزعة دينية مُستحكمة في التفكير والاعتبار، يُقِرّ بالدونية في مجال التدبير السياسي والمؤسّساتي، ولا يهدف، من خلال التحكّم المطلق وتطويع الاستبداد لآليات العمل الشرعي، إلا إلى ضمان الاستقرار المطلوب لدى قادة الانقلابَين الفاشلَين (1970 - 1971).

ويمكن اعتبار اغتيال عمر بنجلون، أحد أكثر النشطاء التقدّميين الداعمين للقضية الفلسطينية أهمّية، نهايةً لذلك الحلم الوطني الذي راهن على الإصلاح في وجه الملكية المطلقة، وقواها الاجتماعية المحافظة، وعلى التقدّم الاقتصادي بديلاً من مختلف التبعيات التي فرضها النظام الرأسمالي على ظروف العمل والإنتاج والمبادلات، ونقطة ارتكاز كثير من التحوّلات الفكرية التي أصابت العقائد الأيديولوجية، ونظرية الثورة نفسها، في مجتمع متخلّف، فصار من التبرير السياسي والأيديولوجي لواقع الصراع في المجتمع أن تعمل مُختلف القوى على هَدْي تصوّرات براغماتية (نفعية) أسقطت بها مختلف التيارات التي كانت من قبل، بفضل روافدها التنظيمية والتعبوية، أسلوب نضالها العام من أجل الإصلاح أو التغيير. وبذلك أيضاً، صار من المؤكّد أنّ القمعَ المباشرَ (بما يعنيه أيضاً من تصفية أو اغتيال أو سجن أو نفي، أو تفكيك لسباق التنظيمية كذلك)، الذي تبلور في سياق الاستبداد، قد أفلح في ترسيم الأمن العام أو تزكيته، وأفسد ودَنّسَ، في المقابل، مطامح التغيير والثورة بصفة نهائية تقريباً.

ما يُدَّر بهذا، القول إنّنا في المنأى أصبحنا، منذ منتصف السبعينيّات من القرن الماضي، أمام مُتَغيّر جديد (باراديغم) سيصبح، فيما بعد، أساساً عاماً لمختلف الممارسات السياسية، وغير السياسية، في ما سيُسمّيه كاتب هذه السطور «المجال الشرعي»، الذي جعلت منه سُدّة دساتير ممنوحةٌ في مدى زمني يقارب نصف قرن (1962 - 2011)، مناط التوافقات الخاصّة (الملكية «الدستورية»، السوق «التبعية»، الصحراء «المغربية»، الدين «إسلام المذهب المالكي»...)، التي استقرّت عليها السياسات والتوجّهات المختلفة، رسمية وحزبية ومدنية، وشعبية كذلك. أما ما تفاعل في هذا النطاق من أوضاع وتحوّلات، ومؤامرات كذلك، فكان في اتجاهه العام في تعارض مطلق مع المرحلة التي سبقت 1975، أي في حالة الاستثناء في 1965، وربّما قبل ذلك، عندما اطاحته، ثمّ قوّضته وجُثّت قواه، بصورة تبدو الآن تامّة ونهائية. وفي هذا الإطار يعتقد كاتب هذه السطور أنّ عمر بنجلون، القتيل أو الشهيد، عندما تكلّم على القضية الفلسطينية، في تلك المرحلة المضطربة من مراحل سنة 1972، أي قبل اغتياله بثلاث سنوات، وسنة فقط على تعذيبه وسجنه على إثر أحداث الكفاح المسلّح التي تفجّرت في الأطلس في 1973، وبعض شهور معدودات بعد المؤتمر الاستثنائي، الذي غيّر مسار الحزب المُنشقّ عن الاتحاد الوطني للقوّات الشعبية «لاشتراكية العلمية» منهجاً يُحتذى في النضال والبناء، فكأنّما كان يتكلّم على نهاية مرحلة وبداية أخرى. لأنّ اغتياله، من الناحية الرمزية والتقدير التاريخي، كان اغتيالاً للفكر الذي جعل من القضية الفلسطينية قضيةً مركزيةً في مصافّ القضايا الوطنية، التي تستوجب النضال والتضامن والمقاومة، مثلما جعل من التحرير الوطني، من خلال مواجهة الطبقة الحاكمة، وهو التعبير الذي يصف نظام الحكم السائد، في مجمل الاختيارات التي رسمتها وحدّدت أهدافها للتطور السياسي والاجتماعي والاقتصادي في البلاد. فالتغيير، من هذا المنظور، كان مطلباً وطنياً شمولياً مسطوراً ومُقرّراً قبل نهاية الحرب العالمية الثانية، والعمل الإصلاحي في تعالق معه، وقد بُني على مفهوم التدرّج، جعل «الاختيار الديمقراطي» أسلوبه وطريقه، غير أنّ قواه وخلفاً وُعْيه، بما في ذلك قوى الوعي الثوري وحملته، الذي كان توجّهه انقلابياً أو جذرياً، لم يكونوا على دراية، أو دون الوعي المطلوب، بالمخطّطات التي جعلت الاستقلال (رغم أنّ بعضهم نعته بالشكلي) مطيّةً للمطامح والأطماع الجديدة، التي تقرّرت بصورة فعلية في إطار ما سمّي منذ تلك الفترة بـ«الاستعمار الجديد»، ثمّ كانت تجلّياته في مختلف المجالات والقطاعات، من خلال برامج وتصاميم اقتصادية ظرفية، دعامةً لترسيخ المنظور الجديد للسوق في إطار الرأسمالية التبعية الاستغلالية، وقد ترافق هذا مع إبطال العمل بالدستور الممنوح، وهو الذي كان من المفروض، في 1962، أن يضع الأسس المقبولة لقيام «ديمقراطية معينة»، «تضبط» الصراع المجتمعي والسياسي بين الفرقاء الساعين للسيطرة على مقاليد الأمور، في الدولة وفي المجتمع على السواء، في ضوء الحسابات التي تصوّروها للانتصار، قبل الهزيمة التي ألحقتها بهم جميعاً ملكية طموحةٌ لا تقبل إطلاقاً غير الحلفاء الموالين أنصاراً خاضعين.

هذا هو الإطار العام، وهو المسمّى «النطاق الأيديولوجي» أيضاً، الذي يُبرزُ بجلاء الطرح الذي بلوره عمر بنجلون، بعد ذلك بأقلّ من سبع سنوات، حين جعل القضية الفلسطينية سياقاً له، والموقف من التحرير عنواناً بارزاً لعرض موقفه منها. أقصد أنّه زاد على ذلك بأن رأى أنّ الارتباط بين الصراع العالمي على الصعيد الوطني يمكن أن يُرى أيضاً من زاوية تفاعله مع الحرب التحريرية التي يخوضها الشعب الفلسطيني. وتحليلي هنا أنّ المشكلة الجوهرية، القائمة في التصوّر، كانت تعني أنّ الحرب التحريرية في ما يخص الشعب الفلسطيني ما زالت متواصلة، في حين أنّ النضال الوطني المغربي لم يعد له المعنى المُقاوم نفسه في مواجهة النظام السياسي القائم، بل من واضح الدلالة أن نقول إنّه تهاوى في مدى قرابة أربعة عقود، بفضل كثير من المتغيّرات، وبأشكال موازية من القهر والتفتيت والريع، التي فعلت جميعاً، بدرجات متفاوتة، في مختلف البنيات سياسية واقتصادية، وفي المستوى الأيديولوجي، وفي الذهنيات كذلك، فتغيّر كلّ شيء في ضوء التحوّل البراغماتي، الذي أنهى النُخَب الوطنية - الديمقراطية، ودجّن الفئات الاجتماعية التي كانت تُناصرها.

سيُحمَّل عمر بنجلون المثقّف المغربي دوراً تعبوياً حين الرَّمْي، وكان هو الأسلوب المُتّبع في السياق النضالي لتلك المرحلة بديلاً من أساليب تكتيكية للتوعية والتجنيد، بالعمل على إبرازِ نظرة واضحة وشاملة نحو القضية الفلسطينية، قضية تحرير ونضال ضدّ الصهيونية (بوصف الأخيرة) جهازاً تابعاً وموازياً للإمبريالية، ثمّ ألحق بذلك الحدّ الآخر في المعادل النضالية، أي «المساهمة من طرف شعبنا، العمل بالدستور الممنوح، وهو الذي كان من المفروض، في 1962، أن يضع الأسس المقبولة لقيام «ديمقراطية معينة»، «تضبط» الصراع المجتمعي والسياسي بين الفرقاء الساعين للسيطرة على مقاليد الأمور، في الدولة وفي المجتمع على السواء، في ضوء الحسابات التي تصوّروها للانتصار، قبل الهزيمة التي ألحقتها بهم جميعاً ملكية طموحةٌ لا تقبل إطلاقاً غير الحلفاء الموالين أنصاراً خاضعين.

هذا هو الإطار العام، وهو المسمّى «النطاق الأيديولوجي» أيضاً، الذي يُبرزُ بجلاء الطرح الذي بلوره عمر بنجلون، بعد ذلك بأقلّ من سبع سنوات، حين جعل القضية الفلسطينية سياقاً له، والموقف من التحرير عنواناً بارزاً لعرض موقفه منها. أقصد أنّه زاد على ذلك بأن رأى أنّ الارتباط بين الصراع العالمي على الصعيد الوطني يمكن أن يُرى أيضاً من زاوية تفاعله مع الحرب التحريرية التي يخوضها الشعب الفلسطيني. وتحليلي هنا أنّ المشكلة الجوهرية، القائمة في التصوّر، كانت تعني أنّ الحرب التحريرية في ما يخص الشعب الفلسطيني ما زالت متواصلة، في حين أنّ النضال الوطني المغربي لم يعد له المعنى المُقاوم نفسه في مواجهة النظام السياسي القائم، بل من واضح الدلالة أن نقول إنّه تهاوى في مدى قرابة أربعة عقود، بفضل كثير من المتغيّرات، وبأشكال موازية من القهر والتفتيت والريع، التي فعلت جميعاً، بدرجات متفاوتة، في مختلف البنيات سياسية واقتصادية، وفي المستوى الأيديولوجي، وفي الذهنيات كذلك، فتغيّر كلّ شيء في ضوء التحوّل البراغماتي، الذي أنهى النُخَب الوطنية - الديمقراطية، ودجّن الفئات الاجتماعية التي كانت تُناصرها.

سيُحمَّل عمر بنجلون المثقّف المغربي دوراً تعبوياً حين الرَّمْي، وكان هو الأسلوب المُتّبع في السياق النضالي لتلك المرحلة بديلاً من أساليب تكتيكية للتوعية والتجنيد، بالعمل على إبرازِ نظرة واضحة وشاملة نحو القضية الفلسطينية، قضية تحرير ونضال ضدّ الصهيونية (بوصف الأخيرة) جهازاً تابعاً وموازياً للإمبريالية، ثمّ ألحق بذلك الحدّ الآخر في المعادل النضالية، أي «المساهمة من طرف شعبنا، المساهمة المنوسة والعملية، في تعارض مع سلبية الحاكمين ببلادنا ومبادراتهم المناهضة لصلحة الثورة الفلسطينية، ووجود شبكة صهيونية قوية الجذور والموارد ببلادنا».

هذا هو الإطار العام، وهو المسمّى «النطاق الأيديولوجي» أيضاً، الذي يُبرزُ بجلاء الطرح الذي بلوره عمر بنجلون، بعد ذلك بأقلّ من سبع سنوات، حين جعل القضية الفلسطينية سياقاً له، والموقف من التحرير عنواناً بارزاً لعرض موقفه منها. أقصد أنّه زاد على ذلك بأن رأى أنّ الارتباط بين الصراع العالمي على الصعيد الوطني يمكن أن يُرى أيضاً من زاوية تفاعله مع الحرب التحريرية التي يخوضها الشعب الفلسطيني. وتحليلي هنا أنّ المشكلة الجوهرية، القائمة في التصوّر، كانت تعني أنّ الحرب التحريرية في ما يخص الشعب الفلسطيني ما زالت متواصلة، في حين أنّ النضال الوطني المغربي لم يعد له المعنى المُقاوم نفسه في مواجهة النظام السياسي القائم، بل من واضح الدلالة أن نقول إنّه تهاوى في مدى قرابة أربعة عقود، بفضل كثير من المتغيّرات، وبأشكال موازية من القهر والتفتيت والريع، التي فعلت جميعاً، بدرجات متفاوتة، في مختلف البنيات سياسية واقتصادية، وفي المستوى الأيديولوجي، وفي الذهنيات كذلك، فتغيّر كلّ شيء في ضوء التحوّل البراغماتي، الذي أنهى النُخَب الوطنية - الديمقراطية، ودجّن الفئات الاجتماعية التي كانت تُناصرها.

> الحرب التحريرية في ما يخص الشعب الفلسطيني ما زالت متواصلة، في حين أنّ النضال الوطني المغربي لم يعد له المعنى المُقاوم نفسه في مواجهة النظام السياسي القائم

سيُحمَّل عمر بنجلون المثقّف المغربي دوراً تعبوياً حين الرَّمْي، وكان هو الأسلوب المُتّبع في السياق النضالي لتلك المرحلة بديلاً من أساليب تكتيكية للتوعية والتجنيد، بالعمل على إبرازِ نظرة واضحة وشاملة نحو القضية الفلسطينية، قضية تحرير ونضال ضدّ الصهيونية (بوصف الأخيرة) جهازاً تابعاً وموازياً للإمبريالية، ثمّ ألحق بذلك الحدّ الآخر في المعادل النضالية، أي «المساهمة من طرف شعبنا، المساهمة المنوسة والعملية، في تعارض مع سلبية الحاكمين ببلادنا ومبادراتهم المناهضة لصلحة الثورة الفلسطينية، ووجود شبكة صهيونية قوية الجذور والموارد ببلادنا».

> الحرب التحريرية في ما يخص الشعب الفلسطيني ما زالت متواصلة، في حين أنّ النضال الوطني المغربي لم يعد له المعنى المُقاوم نفسه في مواجهة النظام السياسي القائم، بل من واضح الدلالة أن نقول إنّه تهاوى في مدى قرابة أربعة عقود، بفضل كثير من المتغيّرات، وبأشكال موازية من القهر والتفتيت والريع، التي فعلت جميعاً، بدرجات متفاوتة، في مختلف البنيات سياسية واقتصادية، وفي المستوى الأيديولوجي، وفي الذهنيات كذلك، فتغيّر كلّ شيء في ضوء التحوّل البراغماتي، الذي أنهى النُخَب الوطنية - الديمقراطية، ودجّن الفئات الاجتماعية التي كانت تُناصرها.

سيُحمَّل عمر بنجلون المثقّف المغربي دوراً تعبوياً حين الرَّمْي، وكان هو الأسلوب المُتّبع في السياق النضالي لتلك المرحلة بديلاً من أساليب تكتيكية للتوعية والتجنيد، بالعمل على إبرازِ نظرة واضحة وشاملة نحو القضية الفلسطينية، قضية تحرير ونضال ضدّ الصهيونية (بوصف الأخيرة) جهازاً تابعاً وموازياً للإمبريالية، ثمّ ألحق بذلك الحدّ الآخر في المعادل النضالية، أي «المساهمة من طرف شعبنا، المساهمة المنوسة والعملية، في تعارض مع سلبية الحاكمين ببلادنا ومبادراتهم المناهضة لصلحة الثورة الفلسطينية، ووجود شبكة صهيونية قوية الجذور والموارد ببلادنا».

> الحرب التحريرية في ما يخص الشعب الفلسطيني ما زالت متواصلة، في حين أنّ النضال الوطني المغربي لم يعد له المعنى المُقاوم نفسه في مواجهة النظام السياسي القائم، بل من واضح الدلالة أن نقول إنّه تهاوى في مدى قرابة أربعة عقود، بفضل كثير من المتغيّرات، وبأشكال موازية من القهر والتفتيت والريع، التي فعلت جميعاً، بدرجات متفاوتة، في مختلف البنيات سياسية واقتصادية، وفي المستوى الأيديولوجي، وفي الذهنيات كذلك، فتغيّر كلّ شيء في ضوء التحوّل البراغماتي، الذي أنهى النُخَب الوطنية - الديمقراطية، ودجّن الفئات الاجتماعية التي كانت تُناصرها.

سيُحمَّل عمر بنجلون المثقّف المغربي دوراً تعبوياً حين الرَّمْي، وكان هو الأسلوب المُتّبع في السياق النضالي لتلك المرحلة بديلاً من أساليب تكتيكية للتوعية والتجنيد، بالعمل على إبرازِ نظرة واضحة وشاملة نحو القضية الفلسطينية، قضية تحرير ونضال ضدّ الصهيونية (بوصف الأخيرة) جهازاً تابعاً وموازياً للإمبريالية، ثمّ ألحق بذلك الحدّ ال

السنوار وخيارات «حماس» الصعبة

لميس أندوني

جاء تعيين يحيى السنوار رئيساً للمكتب السياسي لحركة حماس خلفاً للشهيد إسماعيل هنيّة مفاجئاً؛ فقد كان التفكير يتّجه إلى قيادي سياسي مُتمرّس بالعلاقات والمفاوضات، يقيم في الخارج ويستطيع قيادة الحركة، فيما يقود السنوار المقاومة من داخل قطاع غزّة، ولا يُعرَف ما إذا كان سيبقى حيّاً أو يقضي شهيداً.

أسباب التعيين، وفقاً لمصادر مختلفة قريبة من «حماس»، تفيد بأنّ الحركة اختارت الحفاظ على إجماع تنظيمي، وتجنّب أيّ خلافات داخلية، لكنها باختيارها السنوار بعثت رسالةً إلى كلٍّ من إسرائيل وأميركا، أنّ مركز القرار يبقى في الميدان، حيث المقاومة والوجود في الأرض مع أهل غزّة المحاطة بالموت من الجهات كلّها. قد يكون التحدّي الأول هو الحفاظ على قيادة جماعية، كما صرّح القائد الحمساوي أسامة حمدان، والترابط بين المقاومة الميدانية والتحرّك السياسي في مواجهة تهديد إسرائيلي يجرّ المنطقة إلى حرب واسعة، تتيح لإسرائيل أخذ راحتها في تحقيق إبادة نهائية لغزّة وأهلها. قبل الإسهاب في الموضوع، ضروري الحديث عن السنوار نفسه، إذ رغم ما يثار من انتقادات وتحفّظات، فإنّ ما يميّز الرجل أنّه يشبه الناس، بل إنّه يُجسّد استمرارية مقاومة الفلسطينيين، وليس فقط المقاومة الحمساوية، فهو يرى نفسه امتداداً لكلّ من قاتل ويقاتل من أجل فلسطين، من جميع الفصائل والاتّجاهات، وهي صفة مُهمّة ولافتة في شخصيته وحديثه. فكثير منّا يتذكّر خطابَه في إبريل/ نيسان 2021، حين رأينا فيه صورةً لكلّ مُقاتل قبله ومعه، فروحه الوحدوية ليست شعاراً فُحسب. ففي كلمته، ذكّر بالرئيس الفلسطيني الراحل ياسر عرفات مناضلاً ومقاتلاً وليس رئيساً، مُذكّراً باستيلاء إسرائيل على سفينة كارين إيه، واتهامها عرفات بتهريب أسلحة إلى قطاع غزّة. لقد بدا وكأنّه يختزل في شخصه تاريخ المقاومة كلّه، ومتأثراً بالشهيد خليل الوزير (أبو جهاد)، الذي اغتالته إسرائيل في تونس 1988. ولم يكن ذلك مُستغرَباً؛ فهو وحدوي بالفعل وليس بالقول، ففي سنوات أسره، خاض مع القيادي الفتحاوي مروان البرغوثي معركة مشتركة ضدّ إدارة السجون الصهيونية، والهدف تثبيت الوحدة الوطنية الفلسطينية. ولا يستطيع السنوار، الشجاع صلب الإرادة، تحمّل إلغاء الوحدة، والحركة التالية تشكّل تحدياً لـ«حماس» في المستويات كلّها، فالأساس أن تكون الرؤية والتعامل مع حركة تحرّر وطني جامعة، وهو تحدٍّ دائمٌ لحركة حماس لتخرج من إطار عقائدي ضيّق، فالتواصل مع تحرّر الشعوب يحتاج منظوراً تحرّرياً واسعاً لا تُحدّده هُويَّة دينية أو أيديولوجيا، والتوجّه الإسلامي للحركة يجب ألا يمنع مثل هذا الانفتاح، وإلا فلن تستطيع أن تأخذ دورها حركةَ تحرّر وطني، مع الاعتراف هنا بأنّها تقود المقاومة الفلسطينية بشجاعة وحقّ.

التحدّي المباشر لحماية القيادات الفلسطينية كلّها، والفلسطينيين، هو كيف تتحرّك المقاومة للردّ على اغتيال هنية، فالقضية يجب ألا تُختصَر بانتقام أو ردٍّ لإثبات قوّة المقاومة، بل يجب التغيير لمصلحة الشعب الفلسطيني ككلّ، وبعيد النظر، ولا يكتفي بنتائج آنية، وأن يكون ضمن استراتيجيةٍ لاستمرار صمود الشعب الفلسطيني، خصوصاً أنّ المقاومةَ قد لا تجد إسناداً قويّاً من الحلفاء. فما ثبت الآن أنّ هناك عراقيلٌ تواجه «وحدة الساحات»، وإمكان تنفيذ ردٍّ مشتركٍ من إيران وحزب الله والحوثيين و«حماس». فالجميع يريد أن يتجنّب الجنون الإجرامي لرئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتانياهو، خوفاً على الشعوب، وليس خوفاً من شخص لا يهمّه سوى سلطته ونصره الشخصي، ومستعدٌ لارتكاب مجازرَ ممتدّةٍ في غزّة والضفّة الغربية ولبنان، لتحقيق المشروع الاستيطاني الصهيوني.

ليس المقصود هنا تثبيط العزائم، فالحركات العالمية والشعوب التي تؤازر فلسطين وتناهض إسرائيل هي نصر معنوي مهمٌّ في حدّ ذاته، وإن كان لا يكفي، والأكثر أهمّيةً ضرورة الحفاظ عليه، لكنّ تفعيل جبهاتٍ مُتعدّدةٍ ليس قراراً بيد «حماس»، بغضّ النظر عمّن يقودها. فلإيران حساباتها قوّةً إقليميةً، وهي واضحة في عدم رغبتها بخوض حرب مفتوحة، ولذا لم يأتِ بعد الردُّ الإيراني على اغتيال هنيّة، وحزب الله مُكبَّل، ليس بقرار طهران فحسب، بل وبالوضع اللبناني الداخلي، فبالإضافة إلى أعداء الحزب، ووجود تيّار مُهادنٍ لإسرائيل في لبنان، فإنّ الحزب لا يستطيع تجاهلَ مخاوف اللبنانيين من حرب تدميرية إسرائيلية ضدّهم. مرّة أخرى، هذه ليست دعوة إلى اليأس، لكنّها دعوة إلى الجميع بأن يكون هناك تفكير استراتيجي وراء كلّ خطوة. إسرائيل ليست الأقوى، وقد ثبت أكثر من مرّة أنّ هناك حدوداً لقوّتها أمام مقاومةٍ باسلةٍ وشعبٍ فلسطينيٍّ صامدٍ، لكن هي دعوة أيضاً إلى ألا يترك العربُ المقاومةَ وحدها، وإن كان لا أملَ بالأنظمة لكن هناك أملٌ بالشعوب. المقاومة قادرة على توجيه ضرباتٍ قاسية لإسرائيل، لكن أين دور الشعوب؟... ردَّة الفعل الشعبية على استشهاد هنيّة وتعيين السنوار، بالرغم من الأصوات المُتخاذلة، تدلّ على ضمير شعبي حيّ، ولكنّه ليس فاعلاً. المقاومة الفلسطينية مرّت بمحطّات عديدة، وشهدنا كيف بقيت وحيدةً خلال حصار بيروت، وصرخة درويش الشعرية «حاصر حصارك لا مفرُّ»، لكنّنا ما زلنا نتركها وحدها.

> تحرّر الشعوب يحتاج منظوراً تحرّرياً لا تُحدّده هُويَّة دينية أو أيديولوجيا، والتوجّه الإسلامي لـ«حماس» يجب ألا يمنع هذا الانفتاح

وكنت حذّرت في مقالي، «ما بعد الاغتيالات... الأخطر قادم» («العربي الجديد»، 2024/8/4)، من خطر الحلف العسكري العربي الإسرائيلي قيد التشكيل، وهذا تحدّ رئيس لقيادة «حماس»، ليس على مستقبلها فقط، وإنما على مستقبل المنطقة أيضاً. يجب أن يبقى هدف الهدنة الأول والأكثر أهمّية وقف العدوان، وانسحاب قوات الاحتلال من غزّة مهما كانت الحسابات، لذا، لا تستطيع «حماس» اتّخاذ خطوات للردّ على اغتيال إسماعيل هنيّة من دون أن تعي تبعات ذلك، فالعدو لا أخلاق له ولا معايير اشتباك، وحرب الإبادة التي يشنّها تُلغي القوانين والأعراف كلّها. يجب ألا تُحصَر المسألة في التفكير في مستقبل «حماس» فحسب، فذلك يقود إلى قرارات فئوية، وليس إلى رؤية استراتيجية، «حماس» يجب أن تكون على قدر المسؤولية، لكن يجب ألّا تترك وحدها، يحقّ لنا أن نسائلها، ونُذكّرها بأنّها لا تستطيع قيادة الشعب الفلسطيني وحدها، فهي معركتنا جميعاً، وتُحدّد مصيرنا جميعاً.

(كاتبة وإعلامية من الأردن)

العرب بلا قضية فلسطينية

سمير الزبن

منذ ولادتها، شكّلت القضية الفلسطينية تحدّياً مركزياً ورئيساً أمام العالم العربي مجتمعاً، وأمام كلّ دولة عربية على حدة، ولذلك اكتسب الصراع العربي . الإسرائيلي اسمه من هذه المركزية. وبحكم أثر ولادة إسرائيل دولةً غريبةً على دول المنطقة، دخل الصراع في المكوّنات الداخلية للدولة القُطرية العربية، ووظّف في إطار الصراع الداخلي على السلطة، سواء كانت هذه الدولة قريبة من إسرائيل أم بعيدة عنها. وفي مدى هذه العقود، وبسبب الانشغال الدائم للسياسة العربية بالقضية الفلسطينية، لم يكن ممكناً تصوّر العالم العربي بدون قضية فلسطينية، فهي التي غُطّي من خلالها، لا على السياسات الداخلية الملتوية فحسب، بل على جرائمَ داخل الدول القطرية أيضاً، وفي كلّ مرّة تحت شعار مركزية الصراع مع إسرائيل، و«لا صوت يعلو فوق صوت المعركة».

لم تكن هذه نظرة السلطات الرسمية العربية إلى القضية الفلسطينية فحسب، بل شملت هذه النظرة أحياناً المُعارَضات العربية أيضاً، ومثقّفين عرباً كثيرين، فالجميع انشغل بالصراع المركزي، الذي اعتُبر «صراعاً وجودياً» بين العرب وإسرائيل، وأنّ على كلّ قوّة سياسية عربية تحديد موقفها من القضية الفلسطينية، وأن تكون فاعلاً مباشراً في هذا الصراع، ومن ثم، هي جزء مكوّن من القوى المصطفة (نظرياً) في الصراع مع إسرائيل، مصطفة في الصراعات الداخلية القُطرية (عملياً)، ما يعطيها الحقَّ في أن تأخذ ما شاءت من المواقف، وأن تتدخّل في الشؤون الفلسطينية.

لكن هذا الواقع لم يلبث أن تغيّر، وبدأت الدول العربية، تبحث عن مصالحها الخاصّة، وتبريرها بوطنياتٍ جديدة، وبمصالحَ خاصّة، ولدت من خلال التسوية الأولى مع إسرائيل، عندما عقدت مصر صلحاً منفرداً معها، والذي عُرف باتفاق كامب ديفيد 1978، الذي برّره الرئيس الأسبق أنور السادات بأن مصر استعادت أراضيها الوطنية. أخرجتها هذه الاستعادة من الصراع، وأصبحت مربوطة مع إسرائيل باتفاقات سلام، وبتبادل دبلوماسي برعاية أميركية. فتحت هذه الاتّفاقات الباب أمام الدول العربية الأخرى للتراجع عن ارتباطها بالقضية الفلسطينية. وظهرت في العديد من الدول العربية الدعوات إلى وطنيات جديدة، تفكّ العلاقة، ليس مع القضية الفلسطينية فحسب، بل مع الدول العربية أيضاً، على أساس من أولويةٍ للدولة الوطنية. وجدت هذه الدعوات مروّجيها، حتّى في أوساط المُعارضين في هذه الدول، خاصّة الدول التي استُخدمت شعارات القضية الفلسطينية فيها لقمع المُعارَضة الداخلية. فبعض الدول أصبحت تعتبر القضية الفلسطينية عبئاً عليها، لأنّها تريد إقامةَ علاقات مع إسرائيل، على اعتبار أنّ إسرائيل حليفتها، في الوقت الذي يعيق وجود القضية الفلسطينية هذه العلاقات. ومن جهة أخرى، بات من المطلوب التخلّص من القضية الفلسطينية لدى بعض النُّخَب، لأنّها تعيق تطوّر المُعارَضة في بلدان تحكمها ديكتاتوريات تقمع البلد بذريعة الصراع مع إسرائيل.

> أصبح مطلوباً التخلّص من القضية الفلسطينية لدى بعض النُّخَب، لأنّها تعيق تطوّر المُعارَضة في بلدان تحكمها ديكتاتوريات

راهنت بعض الدول أن تُحلّ هذه المشكلة مع عودة السلام في مؤتمر مدريد 1991، وتُرك الفلسطينيون وحدهم في هذه المفاوضات، أصبح العرب يقولون إنهم يوافقون على ما يوافق الفلسطينيون عليه، وإنهم ليسوا فلسطينيين أكثر من الفلسطينيين، علّ هذا التخلّي يُشكّل ضغوطاً على الفلسطينيين تُؤدّي إلى تقديم تنازلات تدفع للوصول إلى اتفاقات مع إسرائيل. ولكن ما تبيَّن أنّ إسرائيل ليست جادّةً في إيجاد حلّ، وفي الوصول إلى حلّ وسط مع الفلسطينيين، رغم كلّ التنازلات التي قدّموها، في وقتٍ تسعى فيه إلى تطبيع علاقاتها مع الدول العربية، وترك الصراع مع الفلسطينيين تحت السيطرة ومن دون حلّ.

أقامت دول عربية عديدة علاقاتٍ سرّيةً مع إسرائيل، كان السرّ العلني في المنطقة، ولكن هذا النوع من العلاقات السرّية لم يعد كافياً، لا لإسرائيل ولا للدول العربية. انتظرت بعض الدول مجيء دونالد ترامب رئيساً للولايات المتّحدة لفكّ علاقتها النهائية مع القضية الفلسطينية، والارتباط باتفاقات وتمثيل دبلوماسي مع إسرائيل، من خلال اتفاقات أبراهام التطبيعية. وأسّست هذه الاتفاقات نوعاً جديداً من العلاقات في المنطقة، تتجاوز الأسس كلّها التي بُنيت عليها الخريطة السياسية في المنطقة بعد تأسيس دولة إسرائيل، وقنوات التحالفات والصراعات التي سادت عقوداً، وهو ما ظهر في الحرب الوحشية التي تشنّها إسرائيل على الفلسطينيين في قطاع غزّة. فلم تُؤدِّ هذه السياسة الإسرائيلية الوحشية إلى أيّ ردّة فعل عند الدول المُطبّعة، أو حتّى التهديد بسحب السفراء. على العكس، تُطوّر العلاقات البينية، حتّى العسكرية، بين إسرائيل وبعض هذه الدول العربية، في وقتٍ تجري فيه المذبحة في قطاع غزّة. ليس ما يجري في المستوى الرسمي العربي تحرّراً من القضية الفلسطينية فحسب، بل إشاحة النظر عن الدم الفلسطيني المُسال أيضاً، وكأنّ ما يجري في فلسطين لا يعني هذه الدول، ولا يمسّ أمنها الوطني، هذا إذا كان لهذه الدول مثل أمن كهذا.

(كاتب فلسطيني في استوكهولم)

هل يثوب المجتمع الدولي إلى رشده بشأن السودان؟

جمال محمد إبراهيم

1 .

المتابعون أحوال السودان ومآلات الحرب الدائرة فيه، منذ إبريل/ نيسان 2023، لا يرون أفقاً يمكن أن يُفضي إلى إيقاف تلك الحرب الطاحنة، برغم تكاثر الجهود والمساعي ثنائياً، من دول الإقليم، أو جماعياً عبر المنظّمات الدولية والإقليمية. في المقابل، يواصل ملايين السودانيين دفع فاتورة حرب لا تعنيهم في شيء، ولا ترى أطرافٌ عديدة في المجتمع الدولي أنّ تلك الحرب هي، في مختصر القول، صراعٌ حول كرسيّ الحكم، لا أقلّ ولا أكثر. يموت الناس ولا ينشغل بموتهم أيّ طرف من الضالعين بالحرب. يتشرّد الملايين بين نازح داخلي يُطارَد بالرصاص أو يُحاصره الجوع، ونازحٍ إلى بلدان الجوار، يتعرّض لقهر، إذ هو في أرضٍ ليست له، وهو ضيف على أهلها، يسمع حسن القول من بعضهم، وسوء الفعل من بعض آخر. يقاتل ذلك الجنرال بلسانه، فتشتعل نيران حرب يدفع أثمانها شعبٌ حفيت أقدام بنيه بحثاً عن ملاذات آمنة، وعن لقمة خبز، وعن جرعة ماء. هكذا ضاع السودانيون تحت أسنّة رماح داحس وغبراء القرن الـ25 الهجري. نعرض هنا لأمور أساسية، يتعلّق أولها بمسار الحرب في السّودان، والظروف المحيطة بها. ويتّصل ثانيها بما آلت إليه أوضاع المجتمع الدولي إزاء ما عرض لذلك المجتمع من تحدّيات، ومن اختبارات.

2 .

يتّصل الأمر الأول بمسار الحرب الدائرة في السّودان، إذ تابع السودانيون أحوال بلادهم (بل قل أهوالها) فلا يرؤن للحرب في بلادهم من أولوية عند أكثر أطراف ذلك المجتمع الدولي، إلا قليلَ مسعى لا يعكس جدّية. وصف الرئيس الفرنسي إيمانويل ماكرون قبل أشهر تلك الحرب في السودان بأنّها حرب منسيّة. لكن برغم ذلك، ظلّ السودانيون ينتظرون حلّاً، والنيران تشتعل فوق رؤسهم كما تحت أقدامهم، بسبب خلاف مُعقّد بين جنرالين، أحدهما يقود الجيش الرسمي للدولة المُغيَّبة، والآخر يقود كياناً عسكرياً ملتبساً، هو في الأصل مليشيا عشوائية، لكن كلاهما، ويا للأسف، سودانيون. تتقاتل الكتلتان العسكريتان، ولا نرى عند كلتيهما نيّةً لإيقاف تلك الحرب، إلا أن تكسر إحداهما عظم الأخرى. والسّودانيون بالملايين بين نازح ولاجئ، والآلاف يقتلون بالمجّان، في حين ينتظرالناجون منهم حلّاً يوقف القتل، ويوقف تلك الحرب، لكنّه انتظار لا يُرجى منه طائل، وخير منهُ انتظار «غودو»، في المسرحية الشهيرة للأيرلندي صموئيل بيكيت، فذلك انتظارٌ لا قتل فيه ولا جوع ولا نهب ولا اغتصاب.

3 .

لعلَّ من سوء طالع السّودانيين (أو هي أقدارهم) أن تشتعل الحرب في بلادهم، وإن كانت بداياتها داخلية فيما بينهم، لكنّها سرعان ما استدعى تصاعد وتيراتها أطرافاً خارجية، ولكلّ طرف ما يُعلن من مصالح، وما يُخفي من مطامع. وهكذا، تزامنت حرب السودانيين فيما بينهم، تزامناً كارثياً مع اضطرابات وانقلاباتٍ عسكرية، وهبّاتٍ شعبية، وحروبٍ طاحنة في أصقاعٍ عديدةٍ من العالم، شماله وجنوبه، شرقه وغربه. ولكي تكتمل دائرة السوء، أنّ كثيراً منها يقع على مرمى حجرٍ من السودان، فاختلطت خلال تلك التطوّرات المُربكة أجندات الحابل بأجندات النابل، فصعب إيجاد الحلول، وتعسّر فكّ الاشتباكات بين كلّ تلك العناصر. ومثلما كان وصف رئيس فرنسا صائباً، فقد لحق التجاهل والإهمال بحرب السودان، فيما اهتمّ المجتمع الدولي ومنظّماته وهيئاته، ثمّ منظّمات مجتمعاته المدنية المستقلّة بحروب أخرى، وبأزمات أخرى، بما يكاد يكون انتقائيةً مذمومة.

> السّودانيون بالملايين بين نازح ولاجئ، والآلافُ يقتلون، في حين ينتظر الناجون منهم توقّف الحرب، لكنّه انتظار لا يُرجى منه طائل

وهكذا، انتهى مصير البلد الأكبر مساحة والأغنى ثروة، والأكثر بذلاً سياسياً ودبلوماسياً في الساحتين اللتين انتمَى إليهما، أفريقياً وعربياً، لأن يكون القزم في إقليمه، بعد أن كان المارد المُهاب، وأن يكون مُشعِل نيران الصراعات في أرضه وأرض غيره، بعد أن كان الإطفائي الذي يشارك في إطفاء النيران في العالم العربي، وتشهد الجامعة العربية بمواقف تاريخية له في العراق وفي اليمن، وبشهادة المنظّمة الأفريقية لأدوار مُقدَّرة في تشاد وإثيوبيا وإريتريا والكونغو.

4 .

لعلّ الحسرة تهلك الناظر إلى حال بعض المنظّمات الدولية، ومعها بعض المنظّمات الإقليمية أيضاً. لكن تظلّ المنظّمة الأممية التي قويَ عودها منذ إنشائها في عام 1945، الأدعى لأن تبكي حالها الثواكلُ، وأن يرثي الكبار قبل الصغار من الأمم والشعوب هوانها واستخفافها وقلّة حيلتها، فبان أمام الأعين ضعفها وتضعضعها. ذلك هو الذي ترك المنظّمة الأمميّة المَنوط بها حفظ الأمن والسِّلم الدوليين، أعجز من أن تقوم بمهامها المصيرية في الحفاظ على إلزامية نصوص ميثاقها، إنفاذاً وإنجازاً.

ليست حرب السّودان وحدها التي فضحتْ عجزاً إنسانياً كارثياً، هدّد الملايين من البشر، بأكثر ممّا فعللت جائحة كورونا، ومثلها (كما نعلم) يحاصر ربّما بجرعات تطعيم ناجع. ولكن كيف تتمّ محاصرة جائحة حرب يُقتل الناس فيها على الهُويّة، وتدمّر بيوتُهم على رؤوسهم، وتغتصب المرأة من نسائهم، حتّى لا يقتلها الجوع هي وأطفالها. بأيّ مصل وأيّ تطعيم نجد حلولاً لحروب تسترخص أرواح الناس إلى هذه الدرجة المهينة.

تُرى، هل يكون تجاهل المجتمع الدولي بعض أزماته وحروبه ومنافسات أطرافه، سبباً يفسّر إهمالاً تارة، وعجزاً في تارات أخرى؟ أهو إقرار بالفشل لدرء ما يُهدّد البشرية من مخاطر وتحدياتٍ، أم هو تمهيد لفناء قادم، ولانتحار كوني مدمّر، تقترب أيّام وقوعِهِ؟ أم ثمّة أمل في يقظة دولية تنقذ ما يمكن إنقاذه، فتتوقف متواليات الحروب بوتيرتها الهندسية، ويثوب العالم بعد لوثته إلى رُشده الغائب؟

(سفير سوداني سابق)

العربي الجديد
www.alaraby.co.uk
تصدر عن شركة فضاءات ميديا ليميتد (Fadaat Media Ltd)

رئيس التحرير معن البياري ■ مدير التحرير ارنست خوري ■ المدير الفني إميل منعم ■ السياسة جمانة فرحات ■ الاقتصاد مصطفى عبد السلام ■ الثقافة نجوان درويش ■ منوعات ليال حداد ■ المجتمع يوسف حاج علي ■ الرياضة نبيل التليلي ■ تحقيقات محمد عزام ■ مراسلون نزار قنديل

المكاتب
■ المكتب الرئيسي، لندن
Ealing Cross, Second floor, 85 Uxbridge Road, London, W5 5TH
Tel: 00442045801000
■ مكتب الدوحة
الدوحة ـ برج الفردان ـ لوسيل ـ الطابق الـ 20 ـ
هاتف: 0097440190600

■ مكتب بيروت
بيروت ـ الجميزة ـ شارع باستور ـ بناية west end 33
هاتف: 009611567794 - 009611442047
■ البريد الإلكتروني: Email: info@alaraby.co.uk
■ للاشتراكات: alaraby.co.uk/subscriptions
هاتف: 97440190635+ جوال: 97450059977+
■ للإعلانات: alaraby.co.uk/ads